المحاضرة رقم 06: طرق ومناهج البحث في مجال الثقافة والشخصية (الأنثروبولوجيا النفسية)

تمهيد

تُعدّ الأنثروبولوجيا النفسية أحد الفروع البينية الحديثة التي تشكّلت عند تقاطع علمي الأنثروبولوجيا وعلم النفس، وقد نشأت من الحاجة إلى فهم الإنسان في كليّته: بوصفه كائنًا ثقافيًا ونفسيًا في آنٍ واحد، فبينما تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان في سياقه الاجتماعي والثقافي، يسعى علم النفس إلى تحليل البنى الداخلية للشخصية والدوافع والسلوك، من هنا ظهرت الأنثروبولوجيا النفسية كعلمٍ يسعى إلى تفسير العلاقة الجدلية بين النفس والثقافة، بين البنية الداخلية للفرد والمنظومات الرمزية والاجتماعية التي تحدّد سلوكه وتمثلاته للعالم.

إنّ البحث في الأنثروبولوجيا النفسية يطرح تحديات منهجية كبرى، ذلك أنّ الجمع بين المنهجين التجريبي (النفساني) والميداني (الأنثروبولوجي) يقتضي إعادة النظر في مفاهيم مثل الموضوعية، الملاحظة، الذاتية، والمعنى. كما أن فهم الظواهر النفسية لا يمكن أن يتم بمعزل عن ثقافتها المحلية، إذ تُظهر الدراسات أن التصوّرات عن الذات، العواطف، المرض النفسي، وحتى مفهوم "الشخصية"، تختلف باختلاف السياقات الثقافية.

أولا: المدارس النظرية في الأنثروبولوجيا النفسية

يُعتبر تطوّر هذا الحقل نتيجة تراكم معرفي شاركت فيه مدارس فكرية متعددة، لكل منها رؤيتها للعلاقة بين الثقافة والنفس، وفي مايلي تصنيف لأهم هذه المدارس:

1. المدرسة الثقافية النفسية الأمريكية

تُعدّ من أوائل المدارس التي صاغت العلاقة بين الثقافة والشخصية، وكان أبرز روادها **روث بندكت (Ruth Benedict)** و**مارغريت ميد(Margaret Mead)** ، وترى هذه المدرسة أن الثقافة تُنتج نمطًا من الشخصية يُعبّر عن القيم السائدة داخلها، فكل مجتمع يخلق ما يُعرف بـ"النمط الثقافي للشخصية".

- ❖ مثال: في دراستها "أنماط الثقافة"، وصفت بندكت الشعوب وفق أنماط نفسية مهيمنة مثل النمط "الديونيسي" أو "الأبوللييني."
- ❖ أما ميد فركّزت على التنشئة الاجتماعية في المجتمعات البدائية (خاصة في ساموا) لإظهار تنوّع النمو النفسي.

2. المدرسة التحليلية النفسية

تأثرت الأنثروبولوجيا النفسية بمفاهيم **سيغموند فرويد** عن اللاشعور والعقد النفسية، لكن بتكييفها في السياق الثقافي، وكان **أبراهام كاردينر (A. Kardiner)** من أبرز من دمج بين التحليل النفسي والميدان الأنثروبولوجي، وقدّم مفهوم "الشخصية الأساسية "

(Basic Personality Structure)، أي النمط النفسي المشترك بين أفراد المجتمع نتيجة لتجارب التنشئة الأولى، وقد دعمه في ذلك الأنثروبولوجي **Ralph Linton**، مبرزين كيف أن الأنماط الأسرية والتربوية تخلق شخصية ثقافية مميزة.

3. المدرسة السلوكية والوظيفية

ركزت على دور السلوك القابل للملاحظة في تفسير العلاقة بين الثقافة والنفس.

- **برونيسلاف مالينوفسكي** اعتبر أن السلوك النفسي له وظيفة اجتماعية؛ فالحاجة النفسية تلبّيها المؤسسة الاجتماعية.
- **رادكليف براون** رأى أن الانفعالات والمعتقدات جزء من النسق الاجتماعي الذي يحافظ على توازنه.

4. المدرسة البنيوية والتفاعلية الرمزية

أدخلت **البنيوية** (بزعامة كلود ليفي–شتراوس) رؤية جديدة تعتبر البنى العقلية للإنسان واحدة، لكنها تُعبّر عن نفسها عبر رموز وثقافات مختلفة، أما **التفاعلية الرمزية** فتركز على المعاني النفسية التي تتولد أثناء التفاعل الاجتماعي.

5. المدرسة المعرفية الحديثة

تطورت في النصف الثاني من القرن العشرين، وتهتم بدراسة كيفية إدراك الأفراد للعالم وتنظيم الخبرة الثقافية نفسيًا، تمثّلها أعمال كليفورد غيرتس**Clifford Geertz** و**Bruner**، الذين رأوا أن الإنسان كائن مفسّر، وأن الفهم النفسي لا ينفصل عن السياق الرمزي للثقافة.

6. المقاربات المعاصرة

تضم تيارات ما بعد البنيوية والسيميائية والتحليل الخطابي، التي تركز على اللغة والرمز بوصفهما حقلين تتجسد فيهما البنى النفسية والثقافية معًا.

ثانيا: أسس ومناهج البحث في الأنثروبولوجيا النفسية

يُعد المنهج في الأنثروبولوجيا النفسية أحد أعقد القضايا العلمية، إذ يجمع بين المنهج الكيفي الذي يميز الأنثروبولوجيا، والمنهج التحليلي النفسي أو السريري الذي يميز علم النفس، ومن ثمّ، فإن الباحث في هذا المجال يواجه مهمة مزدوجة: ملاحظة السلوك في ميدانه الثقافي، وفهم دوافعه النفسية العميقة.

1. المناهج الكلاسيكية في دراسة التفاعل بين الثقافة والنفس

أ- المنهج الإثنوغرافي(Ethnography)

الإثنوغرافيا هي العمود الفقري للبحث الأنثروبولوجي، وتعتمد على الملاحظة بالمشاركة، أي معايشة الباحث للمجتمع الذي يدرسه لفترة طويلة، وفي الأنثروبولوجيا النفسية، لا تقتصر الإثنوغرافيا على وصف السلوكيات، بل تتجاوز ذلك إلى تحليل المعاني النفسية الكامنة وراء الممارسات الثقافية، فالباحث يسعى إلى فهم كيف يُعبّر الأفراد عن مشاعرهم، وكيف تُصاغ العواطف في نسق ثقافي معين.

مثلاً، معنى "العار" أو "الخوف" يختلف من ثقافة إلى أخرى، ولا يمكن فهمه دون الاندماج في التجربة الثقافية ذاتها.

ب- المنهج المقارن(Comparative Method)

يُستخدم للمقارنة بين ثقافات متعددة من حيث أنماط الشخصية أو التصورات النفسية. وقد اعتمدت المدرسة الأمريكية هذا المنهج لإبراز تنوّع النماذج الثقافية للنفس. فالمقارنة بين الطفولة في جزر ساموا وفي أمريكا مثلًا، كشفت لمارجريت ميد عن أن الاضطرابات النفسية ليست عالمية بل ثقافية المنشأ.

ج- المنهج التاريخي والثقافي

يُستخدم لتحليل تطور النظم الرمزية التي تشكل الوعي الجمعي والنفسي للمجتمعات عبر الزمن، وهو منهج قريب من رؤية روث بينديكت **Ruth Benedict** ولينتون**Linton** في تتبع التراكم التاريخي للعادات والمؤسسات التي تُكوّن شخصية المجتمع.

2. المناهج النفسية في الدراسة الأنثروبولوجية

أ- المقابلة السريرية والتحليل النفسي الميداني

تمثل المقابلة السريرية وسيلة أساسية لفهم التجارب الداخلية للفرد، خصوصًا عند دراسة حالات الصدمة أو المرض النفسي في سياق ثقافي. وقد استخدم **Kardiner**هذا الأسلوب بالجمع بين المقابلات الفردية وملاحظات الحياة اليومية لتكوين صورة عن "الشخصية الأساسية."

ب- اختبار الشخصية في السياق الثقافي

اعتمدت بعض الدراسات تطبيق اختبارات الشخصية (مثل اختبار رورشاخ أو مقياس الاتجاهات) على مجتمعات غير غربية، لكن النتائج أظهرت أن هذه الاختبارات لا تكون دائمًا صالحة ثقافيًا، ومن هنا تطوّر الوعي بضرورة تعديل أدوات القياس لتناسب البيئة الثقافية.

ج- الملاحظة بالمشاركة ودراسة الحالات

تجمع الملاحظة بالمشاركة بين المعايشة اليومية والتحليل النفسي للسلوك، كما تُستخدم دراسات الحالة لفهم العلاقة بين التجربة الفردية والبنية الثقافية الأوسع، فكل حالة فردية تعكس أنماطًا ثقافية عامة، لكنها تحمل في الوقت ذاته خصوصية نفسية لا يمكن تعميمها.

ثالثا: أدوات وتقنيات البحث الميداني في الأنثروبولوجيا النفسية

إنّ البحث في الأنثروبولوجيا النفسية يتطلّب أدوات دقيقة تجمع بين الانغماس في الثقافة وفهم البعد النفسي للفاعل الاجتماعي. وتتعدد هذه الأدوات بحسب طبيعة الظاهرة المدروسة وعمق التحليل المطلوب.

1. أدوات جمع البيانات

أ- الملاحظة المباشرة وغير المباشرة

تُعتبر الملاحظة من الأدوات الجوهرية، إذ تسمح للباحث بتسجيل السلوك في سياقه الطبيعي. في الأنثروبولوجيا النفسية، تُستخدم الملاحظة لفهم الانفعالات في سياقها الطقوسي والاجتماعي، مثل مظاهر الفرح أو الحزن أو الغضب أثناء الاحتفالات أو المآتم.

ب- المقابلات المتعمقة والمفتوحة

تهدف إلى استكشاف التجارب الذاتية للأفراد، مثل علاقتهم بالأسرة أو بالطقوس أو بالسلطة، وتُعَدّ هذه المقابلات أداة فعالة لفهم الرموز والمعاني النفسية التي لا تُقال مباشرة. ويشترط فيها بناء علاقة ثقة بين الباحث والمبحوث، لأن البعد النفسي يتطلب اعترافًا صادقًا.

ج- اليوميات الميدانية

هي سجلّات يدوّن فيها الباحث ملاحظاته وانطباعاته ومشاعره أثناء العمل الميداني، وتلعب دورًا مزدوجًا: توثيق للوقائع، وأداة للتأمل الذاتي في أثر الباحث على الميدان.

د- الوثائق والسرديات الشخصية

تُستخدم الوثائق المكتوبة، والرسائل، والمذكرات، والحكايات الشخصية كموادّ تساعد في فهم التجربة النفسية في بعدها الثقافي، خصوصًا في المجتمعات التي يصعب فيها الوصول إلى البيانات المباشرة.

2. تقنيات تحليل المعطيات

أ- التحليل الثقافي الرمزي

يركّز على تفسير الرموز والمعاني التي تحملها الممارسات والسلوكيات. فمثلًا، طقس الختان أو الحداد أو الزواج يُحلَّل بوصفه بنية رمزية تعبّر عن قيم وضغوط نفسية جماعية.

ب- التحليل النفسي للرموز والسلوكيات

يُستعان هنا بالمفاهيم الفرويدية أو الكاردينيرية لفهم اللاشعور الجمعي والثقافي. ويُنظر إلى الرموز الثقافية كتعابير عن رغبات مكبوتة أو صراعات داخلية تم تحويلها إلى أشكال اجتماعية مقبولة.

ج- تحليل الخطاب الثقافي

يعتمد على دراسة اللغة باعتبارها مرآة للذهن الجمعي. فطريقة التعبير عن العواطف أو وصف الذات أو المرض النفسي تكشف عن البنية الذهنية والثقافية للمجتمع.

د- المنهج التفسيري والتأويلي

يُعتبر امتدادًا لأعمال **Clifford Geertz**، حيث يهدف إلى "قراءة" الثقافة كنسق من المعاني. التحليل هنا لا يسعى إلى تفسير سببي، بل إلى فهم المعنى الذاتي الذي يمنحه الأفراد لتصرفاتهم.

رابعا: نماذج تطبيقية للبحوث في مجال الثقافة والشخصية

1. دراسات الحالة والتطبيقات الميدانية

أ- الطفولة والتنشئة الثقافية

كشفت دراسات **مارغريت ميد** في جزر ساموا عن كيفية اختلاف أساليب التنشئة من ثقافة لأخرى، وتأثيرها في تكوين الشخصية. فالطفولة ليست مرحلة بيولوجية فقط، بل بناء ثقافي يحدد نمط الانفعال وضبط الذات.

ب- المرض النفسي والتمثلات الثقافية

تُظهر الأنثروبولوجيا النفسية أن الاضطرابات النفسية تتخذ أشكالًا مختلفة حسب الثقافة، فما يُعتبر "هلاوس" في الطب النفسي الغربي قد يُفسَّر كاتصال روحي في ثقافة أخرى. مثال ذلك دراسات **George Devereux** حول الاضطرابات النفسية عند الهنود الحمر، حيث جمع بين التحليل النفسي والفهم الثقافي للرموز.

ج- الهوية والعواطف

تُسهم الأنثروبولوجيا النفسية في فهم كيفية تشكّل الهوية الذاتية والجماعية، وكيف تُضبط العواطف اجتماعيًا، فمشاعر مثل "العار" أو "الذنب" أو "الكبرياء" ليست مطلقة، بل مرتبطة بقيم ثقافية.

2. التحديات المنهجية والأخلاقية

أ- التحيز الثقافي في التحليل النفسي

يُعدّ من أبرز الإشكالات، إذ إن مفاهيم التحليل النفسي نشأت في بيئة غربية. ولذلك، فإن تطبيقها على ثقافات أخرى قد يؤدي إلى إسقاطات غير دقيقة ما لم تُعدَّل مفاهيمها بما يناسب السياق المحلي.

ب- صعوبات جمع المعطيات النفسية

تتعلق هذه الصعوبات بطبيعة المواضيع الحساسة، مثل الطفولة، الجنس، أو المرض النفسي، حيث قد يواجه الباحث رفضًا أو تحفظًا من المشاركين.

ج- إشكالية الموضوعية

في الأنثروبولوجيا النفسية، يكون الباحث جزءًا من العلاقة البحثية، مما يجعل الحياد التام أمرًا مستحيلًا، لكن هذا الوعي بالذاتية يمكن أن يتحول إلى عنصر قوة إذا تمت معالجته بمنهج نقدي تأملي.

د- الاعتبارات الأخلاقية

يتوجب احترام خصوصية الأفراد والثقافات، والحفاظ على السرية وعدم الإضرار بالمشاركين، كما يُشترط أن يكون الهدف من البحث خدمة المعرفة الإنسانية لا استغلال المبحوثين.

خلاصة

يتبيّن لنا أنّ الأنثروبولوجيا النفسية أو الثقافة والشخصية تمثل جسرًا بين العوالم الداخلية للفرد والعوالم الرمزية للمجتمع، فهي لا تنظر إلى النفس ككيان مغلق، بل كنتاج لتفاعل دائم بين البنى الاجتماعية والثقافية. لقد ساهمت المناهج الإثنوغرافية والتحليلية النفسية في توسيع أفق فهم الإنسان، إذ أصبحنا نرى الشخصية بوصفها كائنًا ثقافيًا، والعاطفة بوصفها نتاجًا اجتماعيًا.

كما نخلص إلى أن طرق البحث في هذا المجال لا يمكن أن تُختزل في منهج واحد، بل تتطلّب تكاملًا بين المنهج الميداني والتأويلي والتحليلي، فالباحث في الأنثروبولوجيا النفسية مطالب بأن يكون عالمًا بالنفس وبالثقافة في آن واحد، وأن يتعامل مع الميدان لا كموضوع خارجي بل كعالم من المعاني الحية، وأن يرى الإنسان كائنًا رمزيًا يعيش ويشعر ويفكّر من داخل ثقافته.